(الإدارة العثمانية في الجز ائروالقوى الروحية -الطرق الصوفية- بين التو ائم والتصادم)

د / سعودي أحمد، جامعة الأغواط

ملخص :
لقد أدرك العثمانيون منذ اتصالاتهم الأولى بالقوى المحلية في إيالة الجزائر العثمانية و الممثلة في المرابطين وشيوخ القبائل ، أن نجاحهم في حكم الجزائر أي العثمانيين، متوقف على مدى نجاحهم في التقرب و التعامل مع تلك القوى ذات الحضور الديني و الاجتماعي القوي ،ومدى تمكنهم من الحصول على دعم رؤساء ومشايخ ورموز تلك القوى ، فبادروا لأجل ذلك إلى سياسة كان الهدف منها محاولة استمالة تلك القوى وكسب ودها إن أمكن ، وإلا العمل على إخضاعها بمختلف الوسائل المتاحة والممكنة، وقد سجل لنا التاريخ اختلافا واضحا في المواقف و الأدوات التي اعتمدها العثمانيون في التعامل مع تلك القوى الدينية على امتداد المدن والأرياف في مختلف الأقاليم، وفي مدى تجاوب تلك القوى مع تلك السياسة أو رفضها والتمرد علها وهو ما سنتعرض من خلال هذا المقال العلمي.

الكلمات المفتاحية : الطرق الصوفية – العثمانيون- الجزائر – الزوايا – القوى الروحية

Abstract:

Since their first contacts with local forces in the Ottoman Ile of Algeria and represented in the Almoravids and tribal sheikhs, the Ottomans have realized that their success in the rule of Algeria, the Ottomans, depends on their success in approaching and dealing with those forces with strong religious and social presence and their ability to obtain The leaders, leaders, and symbols of those forces supported them, so they resorted to a policy that was intended to attempt to win over these forces and win them if possible, otherwise work to subject them by various means available and possible. History has recorded a clear difference in the attitudes and tools adopted by the Ottomans in dealing with With those religious forces along the cities and countryside in different regions, and in the extent of the response of those forces with that policy or to reject and rebel against it, which will be presented through this scientific article

Keywords: Sufi methods - Ottomans - Algeria - Zawaya - spiritual forces

الموضوع :

فهم العثمانيون منذ بدايات تعاملهم مع القوى المحلية في الجزائر العثمانية بعد إلحاق الجزائر بالدولة العلية منذ 1519م أن نجاحهم في حكم الجزائر واستمرار بقائهم فيها، مرتبط بقدرتهم على التقرب و التعامل مع تلك القوى ذات الحضور الديني و الاجتماعي القوي ،ومدى تمكنهم من الحصول على دعم رؤساء ومشايخ ورموز تلك القوى كما أن هذه القوى الدينية متمثلة في المرابطين وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية ، هم أنفسهم وقفوا تجاه السلطة العثمانية في الجزائر من مسافات مختلفة، فبعضهم تبنى الولاء المطلق للسلطة والبعض الأخر دخل في صراع مع تلك السلطة الزمنية م ، فيما إختار آخرون الحياد.

ولا شك أن مدة مكوث العثمانيين في الجزائر الطويلة نسبيا (1519-1830م) وتغير طبيعة ونظام الحكم خلال الفترات المعروفة (البايلربايات – الأغوات- الباشوات- الدايات) ومرور المئات من الحكام على دفة الحكم ، كل ذلك يجعلنا لا نجد صورة واحدة لتلك العلاقة ، بل لكل فترة وربما لكل حاكم علاقة مع تلك القوى الدينية بناء على الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية لتلك المرحلة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فما هي تلك القوى الروحية التي كانت تتحكم في جزء هام من المجتمع الجزائري؟ ولماذا، وكيف تعاملت مع الوجود العثماني في الجزائري في الجزائر متمثلا في حكامه (1519-1830م)؟ ماهي أشكال هذا التعامل ومبررات ذلك ؟ وكيف تعاملت السلطة العثمانية في الجزائر بدورها مع تلك القوى ؟ وهل انعكست هذه التحالفات و التجاذبات على الوضع السياسي والعسكري و الاقتصادى والاجتماعي للجزائر العثمانية ؟

ملامح سياستهم تجاه القوى الدينية في المدن والأرياف

إن احتكاك العثمانيين بالمرابطين قبل استقرارهم في الجزائر أي منذ مرحلة الجهاد البحري التي تبناها الإخوة بربروس في الحوض الغربي للمتوسط ، سمح لهم بمعرفة مدى النفوذ الروحي لهذه الفئة على عامة الناس وقدرتهم على حشد العامة عند الضرورة و من خلال تقدير سلطة شيوخ الطرق الصوفية في يوميات المجتمع الجزائري ، أدرك العثمانيون أهمية هؤلاء في إنجاح عملية تعبئة العامة ضد الخطر المسيحي الذي كان يهدد الجزائر من خلال تلك الحملات البحرية المتعددة التي كانت تستهدف سواحل الجزائر ش ومدنها شرقا وغربا، ولذلك فإنهم عملوا على استغلال هذا التأثير لحشد الطاقات المحلية ضد هذه التحرشات الصليبية.

وهذا ما نلمسه نمن خلال قراءة مؤلفات تلك الحقبة التاريخية أو القريبة منها فشهادات عبد الكريم الفكون مثلا تؤكد ترجيح السلطة العثمانية في الجزائر لخيار التقارب مع الأولياء والتعويل على خدماتهم ضمن خططهم الرامية لكسب ولاء القبائل ومد جسور التفاوض معها .

ولنبدأ بتتبع سياسة العثمانيين في الجزائر مع هذه القوى داخل الحواضر والمدن ، فقد سعى الحكام العثمانيين بالمدن للاستفادة من نفوذ المرابطين والعلماء والحصول على تأييدهم داخل هذه الحواضر ، وذلك للحيلولة دون تدخلهم في شؤون السلطة لاسيما وأن أعداد العثمانيين (أتراك وغيرهم) كانت قليلة دائما بالمقارنة مع السكان المحليين، فكانوا كثيرا ما يمنحونهم العديد من الإمتيازات ، كإعطائهم نسبة معلومة من مغانم البحر و إجزاء الهدايا والعطايا لهم أيام المناسبات و الأعياد الدينية، وغير ذلك من المناسبات المتعلقة بالعثمانيين أنفسهم كتنصيب الحكام الجدد أو الإنتصارات العسكرية وغيرها، و يلاحظ أن هذه العطاءات تحولت أحيانا إلى إمتيازات من النوع الروحي وبتشجيع من العثمانيين أنفسهم،حتى أضحى ضريح بعض الأولياء ملجأ لكل لاجئ إليه مهما كانت جريمته ، ومن أمثلة ذلك إكرام السلطة العثمانية في الجزائر لزاوية الشيخ عبد الرحمان الثعالبي وضريحه ، لكونها بعاصمة الدولة ولكون الثعالبي نفسه من أبناء المنطقة الذي كسبوا إحتراما كبيرا لدى معظم الجزائريين داخل وخارج مدينة الجزائر، وربما اضمحل دور المرابطين السياسي بالمدن كطبقة اجتماعية .

أما في الأرياف فقد اختلف الأمر نسبيا لأن القوى المحلية فيها من شيوخ القبائل والمرابطين الذين كانوا يساومون الأسياد الجدد في أمر الامتيازات التي اعترف لهم بها الأمراء القدامى، تحت الضغط و التهديد بعدم مواصلة المبايعة لهؤلاء ،وقد كان الحكام العثمانيون في البداية مضطرين للرضوخ لرغباتهم تلك بسبب الحاجة الماسة إليهم لا سيما في جهادهم البحري ضد الإسبان أو حتى لضمان هدوء الجهة الداخلية ومواجهة أي تمردات قبلية مناوئة، والثابت أن العثمانيون لم ينتصروا على الإسبان كما تذكر معظم المصادر إلا بعد جهد كبير وبمساعدة أغلبية مشايخ الزوايا والمرابطين في شرق وغرب إيالة الجزائر، وهم الذين نجحوا اي العثمانيين في استمالة الجزائريين إليهم إعتمادا على العامل الديني المشترك مع العثمانيين وتحول دولتهم وسلاطينهم كرمز للخلافة الإسلامية ، إضافة إلى رغبة الجزائريين أنفسهم في الاستفادة من القوة المادية المستمدة من عظمة الإيالة العثمانية .

وقد وطد الساسة العثمانيون صلتهم مع أولئك الشيوخ عن طريق استشارتهم في العديد من القضايا خاصة الدينية منها، وقد اتخذت هذه الاستشارة طابع الدعاء طلبا للتأييد في السلوك السياسي، أو عند الإستعداد للجهاد وهذا إن دل على شئ إفنما يدل على تقدير الحكام العثمانيين لدور الشيوخ في الحياة العامة و إدراكهم لمدى تأثيرهم في المجتمع .

وهكذا يلاحظ أن العلاقات أعقد في الريف مما كانت عليه في المدينة فهناك المرابطون الذين توجهوا نحو التصوف الروحي كما رأينا، وهناك رؤساء أو شيوخ القبائل الذين كانوا ملزمين بالقضايا الدنيوية، فكان ظهور الحاكم العثماني كمنافس لهم، أكثر منه كبطل للإسلام، لهذا نجد موقفين من السلطة العثمانية من تلك القوى القاطنة بالريف :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- موقف الشيوخ الذين لم يكن لديهم ما يخسرونه من سلطة روحية أو إمتيازات مادية، وهؤلاء انظموا منذ البداية للإخوة بربروس .
- موقف المرابطين الزعماء الذين كانت لهم إمتيازات مادية وروحية، و بقي موقفهم غامضا بإنتظار التطورات .

لكن العثمانيين نهجوا سياسة حكيمة، ونجحوا في تدعيم سلطتين بالريف، كانتا حليفتين لهم: سلطة دنيوية تمثلت في شيوخ القبائل وقادة العشائر الذين ثبتوهم في مواقعهم بغرض الإستفادة منهم وسلطة روحية تمثلت في لجوئهم لأهل الصلاح و الطرقية والتصوف يتزلفونهم، ويحمونهم ويطلبون بركاتهم وعونهم على الرعية .

ورغم أن المرابطين كانوا يُسمعون البايات و الباشوات أحيانا حقائق قاسية فإن العثمانيين كانوا يحترمونهم ويغرقونهم بالهدايا، لإنهم كانوا وسيطهم الوحيد مع القبائل خاصة خلال الحملات العسكرية الفصلية (المحلات) .

كما عمل الحكام العثمانيون في الجزائر على استرضاء المرابطين بطلبهم المغفرة، إذا ما تعرض هؤلاء أو قبائلهم لمهانة كما وتبادلوا معهم الرسائل وأصدروا لصالحهم الظهائر و احترموا مبدأ العناية، ولم يبخلوا على بعض شيوخ الزوايا من ذوي النفوذ بالهدايا والتقدير، وتبركوا بهم وأسقطوا عنهم الجباية وأعمال السخرة، وخوّلوا لهم جمع الزكاة و العشور لفائدة الزوايا كما شجعوا وساهموا في بناء القباب.

كما اشترى رجال الدولة صمت حتى بعض المرابطين الأدعياء بالتغاضي عن أعمالهم، ولو كانت مخلّة بالأخلاق العامة، وحتى بالدين، كما لم تخلو تلك العلاقة حتى من بعض التصرفات الطائشة فقد رشى بعض المرابطين والدراويش الولاة حتى يسكتوا عن ابتزازهم لأموال العامة، والتعدي على الحرمات والأعراض، مثل المرابط قاسم بن أم هاني الذي أنكر التأثير لله و إدعى أنه يملك التصرف، وقد ثبت في العديد من المصادر أن الكثير من أنصاره يدفعون الرشى للولاة.

هكذا يتضح كيف كانت العلاقة وطيدة بين الحكام العثمانيين وبعض المرابطين وشيوخ القبائل والدراويش لأن كل طرف كان يستفيد من الطرف الآخر ومما تقدم يمكن القول أن العثمانيين اكتسبوا تأييد القوى الدينية في ظرف مميز كان خطر الإسبان فيه قائما، إذ تمكنوا من احتلال مواقع عديدة على الساحل وكانوا يهددون المناطق الداخلية المجاورة لها، فكان السكان ينظرون إلى العثمانيين على أنهم منقذون لهم من ذلك الخطر أكثر من كونهم حكاما مستبدين خاصة وأن وجود العثمانيين الحقيقي انحصر في المدن وأحوازها لأنه كان لا يحتاج لأخذ موارده من الداخل مادامت غنائم الجهاد البحري توفر لهم مصادر تسد حاجة الجيش، وكان ينفق منها على المرابطين وشيوخ الزوايا .

هكذا وبهذه السياسة نجحت حكومة الأوجاق في اكتساب دعم المرابطين ومساعدتهم لهم، أو على الأقل الحصول على حيادهم بعد أن اتخذ النزاع الإسباني العثماني صبغة دينية، فتوطن العثمانيين بإيالة الجزائر تحقق بمشاركة من هؤلاء المرابطين والطرق الدينية، الذين هيئوا الأرضية ونفسية المجتمع الجزائري لاستقبال أبطال الإسلام وقادتهم الذين حاربوا الاسبان، لكن بعد رد الإسبان إلى ما وراء أسوار وهران ضعفت الدوافع الجهادية، فطرأ على العلاقات بين الحكام العثمانيين والقوى الدينية في أرياف الجزائر وأقاليمها تطورات.

مكانة المرابطين لدى حكام الجزائر العثمانيين :

اكتسب المرابطون سلطة معنوية بعد أن عملوا على وقف التدهور الذي كانت البلاد آيلة إليه منذ القرن 8هـ/14م، وإستغلوا الفرصة لنشر تعاليم الطرق في المدن والأرياف حتى عرفت انتشارا منقطع النظير خلال القرن 10هـ/16م، خاصة الطريقة القادرية وقد تفطن العثمانيون للدور العظيم الذي يمكن أن يؤديه المرابط، فلم يعاملوهم معاملتهم لسائر السكان، حيث كانوا يستشيرونهم ويشركونهم في المعارك والمفاوضات، كما خصصوا لهم جزءا من مداخيل الجهاد البحري ومنحوهم امتيازات متعددة لأن السلطات السياسية أدركت كما سبق الإشارة إليه أهمية تدخل الطرق الدينية المباشر في الحكم، كما أدركت تجذر الطرق في حياة العامة، لهذا سعت السلطة لإحتوائها والتصالح معها، أكثر مما سعت لكبحها و بذلك فضّل الحكام التأقلم مع المرابطين .

كما أنه لا يجب أن لا ننسى أن العثمانيين في معظمهم كان من العامة والذي تجندوا في الجيش العثماني طلبا للرزق، أنهم أيضا كانوا يبجلون المرابطين، فالجندي الإنكشاري عندما يحل بالجزائر يحمل معه عقلية ما مارسه معه الدراويش في موطنه الأصلي،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويجد مرابطين آخرين يزودونه بالبركات والدّعوات كلما خرج للغزو البحري تماما كما يفعل أباؤه في الأناضول والبلقان ، فقد كانوا قبل القيام بالغزو يدخلون لزاوية والي دادة أو ضريح سيدي بتقة (أبي التقى) وغيرهما طالبين من الأولياء البركة والنصر .

هذا الاحترام كان عن عقيدة متينة وفعلية حتى بالغ العثمانيون في تعظيم المرابطين وإكبارهم، حيث لجؤوا إليهم للتبرك ولاستشارتهم، مما يدل على الثقة المتبادلة، فهذا بيري رايس ظل مع عمه كمال رايس شتائين منذ سنة 901هـ/1495م ببجاية في زاوية المرابط محمد التواتي .

لكن هناك رأي آخر يرى أن العثمانيين بالجزائر لم تكن لهم أي ميول دينية لهذا لم ينشغلوا بتطوير الثقافة الدينية، وما إهتمامهم الضئيل بأمور الدين إلا لإنعكاسها على الحكم والأمن والإستقرار بالبلاد فقط، حيث إتبعوا سياسة معينة لإدراكهم تأثير المرابطين على العامة، فسعى العثمانيون للفوز بدعمهم أو على الأقل الحصول على حيادهم ، وإنضمام الحكام للطريقة ليس للحصول على الدعم فقط لكن لمراقبتها أيضا.

كما لم يحاول العثمانيون ربط المرابطين برباط رسمي، خوفا من ضياع هيبتهم لدى العامة، وإكتفوا بمنحهم شهادات الإحترام والتقدير، مما رفع مقام المرابطين عند العامة، هذا الرباط المعنوي السري كان فعالاً حيث سمح لحكام الجزائر بممارسة حكمهم بقوات قليلة نسبيا.

يصدق هذا في علاقة السلطة بالقوى الدينية، لكن هذه السياسة سمحت للمرابطين من جهة اخرى بنشر التعليم وإيصاله إلى المناطق البعيدة بالريف، التي لم تصلها السلطة وإذا لم يكن للعثمانيين سياسة دينية بالجزائر فموقفهم من القوى الدينية جاء بنتيجة إيجابية كيف ذلك ؟

لقد أصبحت الثقافة متاحة للجميع بعد أن كانت مجرد شارة للإنتخاب والإمتياز، ورأى الناس في سلطة الزاوية والمرابط منبع العدل والشفقة وإذا ما بحثنا فيما أدى إلى إنتشار القادرية على سبيل المثال في الجزائر إنتشاراً كبيراً، وموقف حكام الجزائر منها وجد :

- أن السلطان العثماني كان حامي الطريقة بالمشرق وإنضمام السلاطين والوزراء للطريقة يعني إصغاءهم لشيخ الطريقة.
- أن حكام الجزائر العثمانيين كانوا على غرار السلطان العثماني، في حمايتهم للطريقة القادرية،وإيثارهم لأتباعها مما يفسر الإنسجام الملحوظ بينهم وبين أتباع الطريقة ، ومن ثم إنتشارها الواسع في البلاد الجزائرية في عهدهم وإن كانت الطريقة أخذت في الإنتشار فيها قبل بداية العهد العثماني حيث كان لها أتباع في مختلف أرجاء البلاد، وفي تونس والمغرب الأقصى وبعد قيام السعديين في هذا الأخير وجدت القادرية نفسها في حرج مع هؤلاء وكانت أكثر إنسجاما مع العثمانيين بالجزائر لأن هؤلاء ثبتوا على الجهاد ضد العدو الكافر بينما مال السعديون إلى مهادنة الإسبان مما يفسر إحتقار العثمانيين لمنطقة تلمسان وندرومة المؤيدة للشاذلية طريقة السعديين، وثوراتها المتعددة ضد الحكم العثماني وخروج مرابطيها الشاذليين إلى المغرب الأقصى بعد ضم تلمسان للجزائر مثل مرابطي أولاد سيدي أبي عبد الله، وسيدي محمد أفغول وسيدي عمار الذين تحالفوا مع الإسبان في 942هـ/1535م .

كما يجد الباحث أن العلاقة بين العثمانيين والمرابطين توطدت بعد أن صار صيت الإخوة بربروس في الحوض الغربي للمتوسط خاصة بين سكان مدينة الجزائر، ولاسيما بين الصلحاء والمرابطين منهم الذين كانوا يدعون الناس للجهاد ومحاربة الإسبان المستولين على معظم الموانئ وكان على رأسهم المرابط أحمد بن القاضي الزواوي .

وقد عمل عروج على كسب مساعدة معنوية من السلطات الدينية رغم أنه قتل سليمان التومي عندما أراد إستعادة نفوذه على مدينة الجزائر ، لكن المرجح أنه تصالح مع عائلة التومي بتدخل من خليفة الولي سيدي عبد الرحمن الثعالبي ، لأن الحقد ضد العدو المسيحي أضحى نقطة تفاهم وتلاق بين الطرفين .

أما خير الدين فعرف كيف يقوم بالدعاية لصالحه ، منذ أن كان بتونس في 921هـ/1515م، وبرز بفضل تبجيله للعلماء المحليين وعمله بعد ذلك مع أخيه عروج ثم بعده على أن يرفع من مكانة المرابطين بإحترامهم وإستشارتهم والأخذ برأيهم وقد كانت لهذه السياسة نتائج تجلت في :

- تزكية العلماء لجهاده البحري والدعاية لها .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- ميل علماء مدينة تنس إليه وتخليهم عن أميرها الذي انقلبوا عليه وأباحوا دمه الأمر الذي جعله يهرب من المدينة .
- رفضه في سنة 925هـ/1519م قبول فدية الشخصيات الكبيرة التي وقعت في قبضته خلال الإنزال الذي قام به الإسبان في تلك السنة في الجزائر بقيادة هيغو دو مونكادا، إحتراما لرأي علماء الجزائر و مرابطيها .

كما استبقي خير الدين على المرابطين إلى جانبه، حيث كانباستمرار يغدق عليهم بالمال ويحتفي بهم، ففي 942هـ/1535م زار ولي البليدة سيدي أحمد الكبير ومقابل دعائه بنى خير الدين له ولأتباعه المورسك مسجداً وبقربه فرن وحمام وعلى نهجه سار خلفاؤه من الحكام العثمانيين، مثل رجب باي التيطري الذي أعفى كل الشرفاء من الضرائب وأعمال السخرة وذلك في جمادى الأولى 9هـ/1548م،كما أعفى العثمانيون المرابط إبن شعاعة، تلميذ الملياني وصاحبه من الضرائب.

كما أن الباحث في تاريخ الجزائر في القرن 10هـ/16م يمكنه أن يرصد مواقف عديدة للسلطة من القوى الدينية المتمثلة أساسا في المرابطين ،وأتباع الطرق الصوفية ومشايخهم في المدن و الأرياف في مركز الدولة وفي أقاليمها أو بيالكاتها وسياستهم تجاهها ويمكن القول أن تلك المواقف تحددها أو ترسمها إلى حد كبير مصالح الطرفين فالتقارب والتباعد والتودد والتنافر يخضع إلى مصالح هذا الطرف أو ذاك، والمنازعات التي حدثت بين إمارة كوكو بالقبائل الكبرى، وإمارة بني عباس بالقبائل الصغرى أضعفتهما ماديا ومعنويا وجعلتهما أكثر إنقيادا لهم.

وقبل ذلك وعندما تضايق العثمانيون من سلطة ونفوذ كل من إبن القاضي وسليم التومي، إغتالوا هذا وتحايلوا على ذاك إلى أن إغتيل من طرف أحد خاصته ورغم الإتفاق الذي وقع في 935هـ/1529م بين خير الدين والحسين بن القاضي، والذي إعترف فيه خير الدين بالحسين حاكما على كوكو والقبائل في مقابل الإعتراف بالسيادة العثمانية بقيت إمارة كوكو تناوئ العثمانيين إلى أن تقرّب صالح رايس (959-963هـ/1552-1556م) من أمير كوكو وصاهره بعد مساعدة قبائل الزواوة له في فتح بجاية ونفس الموقف وقفه حسن باشا مع حاكم كوكو مانحا إياه سلطات محلية واسعة .

كما تحالف العثمانيون مع أمراء بني عباس لبعض الوقت لمد نفوذهم إلى تلمسان في 952هـ/1545م و 957هـ/1550م وتقرت في 959هـ/1552م وورقلة ، ثم إنقلبوا عليهم لأنهم رفضوا نفوذهم على منطقته بجاية، فعزله حسن باشا في 966هـ/1559م وثار سي عبد العزيز إلى أن قتل، فخلفه أخوه سي أحمد أمقران الذي بايع للسلطان العثماني وحاكم الجزائر على مضض .

وقد عرفت منطقة القبائل مصادمات عنيفة مع العثمانيين على عهد كل من خير الدين وحسن آغا وحسن بن خير الدين وصالح رايس، إنتهت بالتسليم بشرعية الحكم المركزي وإستقرت الأوضاع بعد إخضاع إمارتي كوكو وبني عباس لنفوذ الجزائر، ولكن إذا فقد مرابطوا القبائل الملاّك دورهم المهم على الصعيد العام فقد إحتفظوا بدور محلي لا يقل أهمية بالنسبة للعثمانيين الذين لم يستطيعوا إستغلال المنطقة ودخولها إلا بموافقة المرابطين في مقابل حصول هؤلاء على حقوق إقطاعية.

كذلك أبقى العثمانيون على الإمتيازات التي إكتسبها أولاد أمقران بمجانة بعد النزاع الذي شب بين الطرفين لأن أولاد أمقران رفضوا دفع الضرائب ، لكن محمد بن فرحات باي في(996-1017هـ/1588-1608م) قاتلهم بمساعدة الجزائر و إكتفى بتغريمهم خسائر الحرب فقط .

كما كان الحكام العثمانيون يستعينون بالمرابطين عند ثورة السكان وتمردهم على الحكم المركزي، ليهدئوا الوضع وفي مقابل ذلك كانوا يغدقون عليهم بالهدايا، كما فعلوا مع المرابط سيدي محمد أمقران في القرن (10هـ/16م) الذي عمّ نفوذه منطقة بجاية وجيجل ،حيث إتصلت به الحامية العثمانية مانحة إياه عدة إمتيازات.

هكذا يتضح أنه عندما فشلت السلطة في إلحاق الحركة المرابطية بها أو السيطرة عليها أو تجاوز نفوذها عوضت ذلك بجعل الحركة الوسيط بينها وبين العامة.

أما في الغرب الجزائري الذي كان للقوى الدينية فيه سلطة كبيرة فيلاحظ أن العثمانيين أبقوا على إمتيازات المرابطين التي حصلوا عليها من الزيانيين لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد.

ونجد العلاقة بين المرابط أحمد بن يوسف الملياني وأوائل حكام الجزائر العثمانيين قد إستحكمت ضد الإسبان والزيانيين، وكان المرابط أحمد بن يوسف الملياني محل خشية الزيانيين لإلتفاف الناس حوله لكراماته فسجنه أبو حمو الثالث لكنه عندما رأى

المنارة للاستشارات

كراماته أطلق سراحه وتركه وشأنه غير أن الملياني ظل في تلمسان إلى أن خرج أبو حمو الثالث منها هاربا إلى وهران، حينئذ خرج الملياني بدوره من المدينة ويعود التحالف بين الإخوة بربروس والمليانى إلى سنة 923هـ/1517م أو ربما إلى ما قبل هذا التاريخ حيث نال خير الدين بركة الشيخ وهو تحالف نِدّين حيث شرط المليانى أن لا يجري حكم العثمانيين عليه، ولا على نسله ولا على من تعلق به وبنسله، رغم أن خير الدين منحه أربعة آلاف دينار، وعيّن له منحة قدرها ثمانية صيعان من القمح كل سنة، عند ذهاب الحجّاج إلى الحرمين، لأن الملياني تخوّف من العثمانيين بعد فعلتهم بتلمسان .

وقد حافظ العثمانيون على شرط الملياني كما ظل أتباع الشيخ مؤيديين للسلطة، فخير الدين إستقبل محمد بن مرزوقة بكر المليانى وأغدق عليه بالمال وجعله أميرا للحجّاج لحمل الصرّة إلى الحرمين وبقيت إمارة الحج في ذرية إبن مرزوقة الذين إستوطنوا وادي الحامول بنواحي المدية .

أما في الشرق الجزائري فيجد الباحث في شؤون الجزائر في القرن 10هـ/16م أن العلاقة بين العثمانيين وممثليهم في بايلك الشرق الجزائري وبين القوى الدينية فيه كانت متنوعة تبعا لقبول هذه الأخيرة الولاء لهم أو رفضها، فالقوى الدينية التي قبلت الولاء لهم حظيت بكل أنواع الإحترام والتبجيل والإعفاءات كما فعل باي قسنطينة الذي أعفى العائلات المرابطية بجبال البابور من الضرائب، وهناك من لم يدفعوا قط الضرائب مثل الوكاكسة بمنطقة تبسة لأن العثمانيين غضوا الطرف عنهم إحتراما لجدهم بو وكس على الأرجح، نفس الأمر فعلوه مع عائلة الفكون بقسنطينة.

ومرة أخرى نجد الحكام العثمانيين قد إتبعوا سياسة فرق تسد بين القوى المحلية الدينية والعلمية والقبلية، حيث أشعلوا النار بين عائلتين بقسنطينة، عائلة الفكون وعائلة عبد المؤمن وكان النصر لعائلة الفكون لأنها أذعنت للعثمانيين، فبجلوها ومنحوها ركب الحج، أما عبد المؤمن فتم قتله لأنه رفض الحكم العثماني بتحريض من الحفصيين ونفس المصير عرفته الدولة الشابية التي طمحت على يدي عرفة الشابي لإعتلاء عرش تونس فكان مصيرها السقوط على يد العثمانيين الذين إعتبرتهم أجانب ورأت نفسها أحق بتمثيل الإسلام منهم .

ويمكن القول أن ضعف الخطر الخارجي بالشرق لم يُؤَدِ إلى حلف عثماني مرابطي كما حدث بالغرب وقد يعزى ذلك إلى : عدم وجود دولة قوية مجاورة منافسة ومثيرة للثورات ضد العثمانيين وإلى عدم الإعتماد على حزب ديني مثل الشرفاء مما جعل من العنصر الديني بالشرق أقل أهمية منه بالغرب الذي تعرض لغزو إسباني قوي.

وحسب العروي فإن ذلك يعود إلى وجود خطتين دفاعيتين في مواجهة الخطر الإيبيري، فعلاوة على الفرق الجغرافي هناك الفرق في الهيئة القيادية لمشايخ الزوايا من جهة وزعماء العشائر من جهة ثانية ، فكل جماعة كانت تحاول إعادة بناء المجتمع المفكك حسب نمطها التأسيسي، ويعزو العروي ذلك أيضا إلى الإختلاف في البنية الإجتماعية، ففي الشرق غلب النمط الهلالي القبلي الذي إستنفذ كل ممكناته، فلجأ إلى عصبة جديدة تمثلت في جماعة مغامرين، إتفق أنها كانت تابعة للسلطان العثماني، أما في الغرب فإنتشر فيه نمط الزاوية التي عمدت إلى ذوبان الولاء القبلي المعهود، والتي توخت في العمق إسناد النفوذ الروحي لوارث السّر بالإنتساب.

ومما تقدم يمكن القول أن العثمانيين بحثوا عن نفوذ روحي لأنهم كانوا قلة بالبلاد مقارنة بالسكان ،رغم تفوق نظامهم العسكري خاصة أن أهالي أغلب المناطق كانوا يكرهونهم، فبحثوا عن تأييد المرابطين راجين منهم المساعدة لفتح المناطق التي إستعصت عليهم.

ويمكن القول في الأخير أنه وإن إختلفت سياسة العثمانيين تجاه القوى الدينية في القرن 10هـ/16م فإن الغالب عليها هو الإحترام والتفاهم، لأن الخطر المسيحي كان نقطة إلتقاء بين القوتين : القوة العسكرية العثمانية والقوة الدينية المرابطية.

كما يمكن القول أنه كان للمتصوفة اليد الطولى في إرساء دعائم الحكم العثماني بالجزائر، فتغير بذلك مسار المنطقة كلها لهذا الموقف عاملهم العثمانيون بكل إحترام وتبجيل.

تأثير الطرق الصوفية على الرعية والفئة الحاكمة في إيالة الجزائر:

لقد كانت للزاوية و للطرق الصوفية سلطة قوية داخل المجتمع الجزائري وحتى لدى الفئة الحاكمة وذلك لما تملكه هذه الطرق من مال و اتباع وسلطة روحية على المجتمع الجزائري،سواء في تركيبته المحلية المتمثلة في السكان الأصليين قبل مجئ العثمانيين

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أو بعد امتزاجه بالعنصر التركي الذي أصبح فئة من فئات المجتمع الجزائري فيما بعد الأمر الذي يجعلنا نتناول دراسة التأثير السياسي للطرق الصوفية على المجتمع الجزائري بفئتيه.

1- السلطة الصوفية وعلاقتها بالرعية (الأهالي) :

تميزت الفترة التي سبقت العهد العثماني في الجزائر سياسيا،بانعدام الشعور بالوحدة الوطنية بمفهومنا الحالي وذلك بسبب إشتداد الصراعات القبلية على الإقاليم و إحتدام النزاعات السياسية على السلطة،فقد كان هناك حوالي 14 مشيخة مستقلة ذاتيا منتشرة بربوع الوطن ، مما ساعد على تقلص النفوذ السياسي المركزي و الذي اقتصر على تلمسان و احوازها ، وبعض المدن الشمالية الغربية.

لتعويض تلك القوى المركز برزت مجموعة القوى الروحية على رأسها الطرق الصوفية التي كان لها نفوذ وسلطة كبيرة على المجتمع اذ تمكنت من جمع العديد من القبائل حولها ،فكانت تشعر الأتباع والناس عموما بالمصير المشترك كلما داهمهم الخطر ،فكان المرابطون و الطرقيون يعتمدون على أنفسهم في الدعاية لأفكار وتوسيع شعبيتهم،ويوجهونها روحيا بإصدار الأوامر إلى أهل المدن .

ويتضح ذلك لنا مثلا في موقف عبد الرحمن الثعالبي حين دعا أهل المدينة وما حولها للجهاد ضد الهجمات الصليبية وتوفير أدوات الحرب واتخاذ عدة النصر ،وكذلك حين أرسل رسالته إلى محمد بن احمد يوسف الكفيف ببجاية يحثه على الاستعداد للحرب ومقاتلة الأعداء هذا ما يؤكد لنا شيوع الروح الصوفية وتحكمها في توجيه الأهالي إلى الجهاد ولكنها مع ذلك لم ترق إلى توحيد المشائخ والإمارات المتنافرة في سلطة واحدة ،فقد كان لكل مدينة رمزها الروحي الذي يؤلف بين القلوب ،فالثعالبي ظل حيا ثم ميتا يمثل رمز السلطة الروحية في مدينة الجزائر وأحواض متيجة ،ومحمد الهواري يمثل تلك السلطة في وهران ، وفي معسكر كانت الطريقة القادرية هي التي تمثل تلك السلطة ،وفي أحواض شلف وتنس كان يمثلها آل أبهلول المجاجي ، وفي عنابة كانت المشيخة في عائلة ساسي البوني .

لم تقتصر السلطة الصوفية على توجيه الأهالي للجهاد ضد الإسبان ، بل تجدها قد تحالفت مع العثمانيين في إنهاء الوجود الإسباني بالسواحل الجزائرية إذ أن الصوفية الثعالبة قد تعاونوا مع بربروس وعقدوا معه معاهدة لصد الإسبان الذين كانوا متمركزين بصخرة البينون .

هذا وقد استمرت القوة المتمثلة في سلطة الصوفية حتى فترة الحكم العثماني واتسع انتشارها ونفوذها مما جعل السلطة العثمانية الحاكمة ،تبدي تخوفا منها خاصة وان هناك من عارض وجودها بالجزائر، الأمر الذي استوجب عليها محاولة كسب هذه الفئة من الرجال الصوفيين الى صفها بشتى الوسائل .

السلطة الصوفية وعلاقتها بالأتراك العثمانيين(الحكام) :

باعتبار أن الأتراك العثمانيين أصبحوا في الفترة العثمانية من ضمن الفئات المكونة للمجتمع الجزائري وبحكم التأثير والتأثر الناتجين بين العلاقات القائمة بين الفئتين التركية والجزائرية فقد كان من الطبيعي أن يكون هناك انجذاب الفئة التركية للطرقيين ، خاصة وأن الطرق الصوفية ليست بالأمر الجديد عند العثمانيين فقد كان سلاطين الدولة العثمانية متأثرين بالتصوف ،حيث كان سلطان القسطنطينية مثلا حاميا للطريقة القادرية في المشرق ، كما اعتنى الأتراك بالمرابطين ايما إعتناء فكانوا يعظموهم ويتبركون بهم ويتقربون إليهم ويطلعوهم على خططهم ونحو ذلك ولتشجيعهم كان البشاوات يعينونهم أيضا كرؤساء على الأعراش والقبائل لكي ينتفعون باعطياتهم و زكواتهم .

ومن أمثلة ذلك وثيقتان تعكسان لنا ذلك :

فهذا مرسوم تعيين لأحد المرابطين في ناحية بجاية مما جاء فيه:

"أما بعد فان حامله المعظم الفقيه الأجل السيد المولى الأعلى البركة ،السيد عبد القادر بن المرحوم الولي الصالح القطب، الناصح الشيخ البركة سيدي أمقران نفعنا الله ببركاته ، و أفاض علينا وأنعم عليه بكافة عرش برباشة الذي هما على ثلاثة فرقات يقال لها أولاد عبد الله والثانية تسمى بيرى ،والثالثة التي تجمع الجميع يقال لها برباشة ، ويكون الجميع زاوية من جميع زواياه ،ويكون كلهم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حيا عليه وعلى أعقابه ينتفع بمقرهم وزكاتهم له، ورفعنا عليهم يد باي هذه الناحية الشرقية وعمالهم عن الأذن...." مولاي الدولاتي الحاج محمد باشا أيده الله بمنه آمين.... أواسط شهر جمادى الثانية 1093 هـ الموافق لشهر جوان 1682م .

أما الوثيقة الثانية فتتعلق بتعين مرابط قرية جيجل جاء فيها :

"الحمد لله وحده، ليعلم من يقف على هذا الأمر الكريم والخطاب الواضح الجسيم، من القواد والعمال الخاص والعام وجميع المتصرفين في الأحوال خصوصا قرية جيجل، أما بعد فإن حامله المعظم الأجل السيد الحاج أحمد المكي، نجل القطب سيدي أمقران، نفعنا الكبير ببركاته آمين، أننا قد أنعمنا عليه وقدمناه مرابط بقرية جيجل، ولا يتعدى عليه أحد من أهل النوبة، ولا من يكسر عليه حرمه منا ولوقوفه مع النوبة في إتيان الأرزاق ولوجه جده المذكور ولطعمه الفقراء والمساكين كتب عن أذن المعظم الأرفع مولانا الدولاتي السيد علي باشا، أواسط شوال (1168 هـ) الموافق لجويلية 1755 م .

هذا ولقد لجأ البحارة بدورهم إلى رجال الدين ليتبركوا بهم فكانوا عندما ينوون الخروج للغزو، يذهبون أولا إلى الأولياء والصالحين لنيل بركاتهم وكانوا يطلقون من البحر عند ذهابهم وإيابهم طلقات مدفعية معينة إحتراما لهم، إذا هرب منهم أحد الجناة إلى قبة أو ضريح ولي فإن اللاحقين به يتوقفون عن ذلك ولا يتابعونه .كما أن كبار العثمانيين ذهبوا إلى المرابطين الصوفيين وشاوروهم في أمر الاستيلاء على السلطة في الجزائر.

موقف الطرقية من النظام التركي بالجزائر:

وعلى العموم فإن المتأمل لتاريخ العلاقة بين الحكام الأتراك العثمانيين في الجزائر والجزائريين عموما ، أن هاته العلاقة كانت شديدة التأثر بتدخل سلطة مشايخ الطرق الصوفية سلبا أو إيجابا ، وأنها لم تكن ذات وجهة واحدة ولم تكن قارة، فيمكننا أن نميز بين ثلاثة مواقف واضحة لدى رجال الطرق الصوفية في تعاملهم مع الإدارة العثمانية.

رجال ومشايخ الطرق الذين أيدوا الوجود العثماني منذ البداية، إذ أعلن هؤلاء تحالفهم الواضح مع العثمانيين ضد الإسبان واستمر بعضهم في مساندتهم لهم حتى أواخر عهدهم ومن أمثلة ذلك ما جاء في رحلة بيري رايس العثماني ، من أن الشيخ محمد التواتي كان يحمي مدينة بجاية من الإسبان ، وأنّ زاويته كانت ملجأ للمجاهدين وغزاة البحر ، إذ لجأ بيري رفقة عمه كمال رايس إلى زاوية الشيخ محمد التواتي ، وطلب منه المساعدة سنة 901 هـ ، فما كان منه إلا أن رحب بهما وقدم لهما يد العون وعن عائلة بن القاضي التي تسكن إمارة كوكو وجبال جرجرة ، فقد قدم شيخها الحسن بن القاضي أيضا يد المساعدة للعثمانيين ، إذ قاد هذا الأخير الوفد الذي أرسله خير الدين إلى سلطان العثماني سليم الأول ليقترح عليه ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية ، ولو أنه فيما بعد قد غير موقفه .

أما أحمد بن يوسف الملياني فيذكر التاريخ كيف قدم العون لعروج الذي استغل بدوره فرصة الخلاف بين الدولة الزيانية و الملياني من أجل ضم حليف له يساعده على الاستيلاء على تلمسان ، حيث زار عروج دار الملياني واتفق معه سرا ، على عدة أمور ، منها أن يعلن الملياني وأتباعه تأييدهم للعثمانيين ، بينما تعهد عروج بعدم التعرض للملياني ولنسله ولمن تعلق به .

وقد أُشهر هذا التحالف والتزم به الطرفان طيلة العهد العثماني ، ولم ينسى خير الدين باشا أن يرسل من الجزائر هدايا ثمينة إلى الملياني بعد نجاحه في ضم تلمسان ، كما اعترف لاحقا بابن الملياني كخليفة لوالده في رئاسة الطريقة الشاذلية و سمح له بنشر دعوتها ، ويقال أن حسين باشا كان متزوجا من إحدى حفيدات الملياني .

ويذكر الشيخ الدين في مذكراته أن شيخ العرب أحمد بن علي بوعكاز السخري ، ساند الأتراك في حربهم ضد الإسبان سنة 1515 وشاركت قبيلة الذواودة وفي هذه الحرب بجيشين ، أحدهما رابض في شرق مدينة الجزائر ، وثانيهما رابض في غرب العاصمة .

أما في قسنطينة فقد نجح العثمانيون في إستمالة الشيخ عبد الكريم الفكون إلى جانبهم من أجل تأكيد نفوذهم في المنطقة ، بعد أن التمسوا منه الموافقة و الرغبة في التحالف معهم ، وقد ساعدهم هذا التحالف على التوغل نحو الداخل ، و الحصول على ملامح الطاعة بالمناطق التلية ، والتقدم تدريجيا نحو الجنوب الشرقي في محاولة لإنهاء تحصن أولاد صولة بجبال الزاب .

وفي مقابل ذلك حصلت عائلة الفكون على امتيازات كبيرة خاصة في المجال الاقتصادي ، فتمكنت من الارتقاء في الحياة والسلطة ومن بين هاته الامتيازات ما يلي :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- قيادة بعثة الحج ، مع الحق الكامل في اختيار أعضاء القافلة والاستفادة من هذه المهمة ماديا بقدر الإمكان .
- إدارة جميع أوقاف الجامع الكبير دون مراقبة ولا محاسبة من طرف السلطة العثمانية.
- إعفاء جميع الأوقاف التابعة للعائلة و جميع أملاكها في المدينة وفي الريف من الضرائب ومن كل الغرامات .
- الإعفاء أيضا من الغرامات و السخرة ، وحق دخول المدينة والخروج منها ، وحق توفير الطعام والسكن.
- استفادة العائلة من نيل الهدايا والعطايا العقارية وغيرها ، ومن حق العشر من الزرابي والخشب المحول من نواحي الأوراس إلى قسنطينة ومن حق المكوس على أسواق الخضر والفواكه ، و من جهة أخرى فإن جميع من يلتجئ إلى العائلة سواء في المنزل أو غيره ، ولو خارج المدينة ، مصون لا يتعرض لأي عقوبة ولو ارتكب جريمة .

أما في عنابة فقد تآزرت عائلة ساسي البوني مع العثمانيين ومدت لهم يد المساعدة ، إذ توطدت بينهم علاقة حميمة على مر الزمان وتتجلى هذه العلاقة من خلال الرسائل المتبادلة بين محمد ساسي البوني ويوسف باشا الجزائري من جهة ، وبين أحمد بن قاسم البوني وأحمد بكداش من جهة أخرى وفي منطقة الشلف نجد أن العثمانيين قد أتبعوا مع الشيخ محمد بن المغوفل نفس الطريقة التي اتبعوها مع الشيخ الملياني ، إذ كان للمغوفل نفوذ على قومه لذلك كان أول من قصده العثمانيون في هذه الجهة وطلبوا إليه مبايعتهم ومناصرتهم على الزيانيين ، ومباركة حملتهم عليها ، فكان لهم منه ما أرادوا .

ومهما يكن من درجة التأييد التي أبداها رجال الصوفية حيال الوجود العثماني في الجزائر فهي مبنية على أساسين :

- الأول يتمثل في استنجاد رجال الطرق الصوفية والمرابطين بالقوة العثمانية التي رفعت لواء الجهاد ضد الحملات الصليبية بهدف التصدي لهذا الخطر الذي كان يهدد الكيان الإسلامي في الجزائر ، والذي مثله كل من الثعالبي الذي تحالف مع العثمانيين وعقد معهم معاهدة لصد ومواجهة حملات الإسبان الذين كانوا متمركزين بصخرة البنيون .

وسالم التومي الذي استقبل عروج أثناء قدومه إلى مدينة الجزائر لنصرة أهلها وكذا كل من محمد التواتي و ساسي البوني كما سبق ذكرهم

- أما الأساس الثاني الذي ارتبط به تأييد السلطة العثمانية ، فيتمثل في سياسة التحالفات التي لجأ إليها الحكام بغرض إحكام سيطرتهم على أكبر عدد ممكن من المناطق وذلك إما بإعطاء امتيازات كبيرة وواسطة للمشايخ مثل ما حدث مع عبد الكريم الفكون وكذا قبيلة المعاتقة التي أعفاها الباي محمد بن علي من الضرائب كضريبة العشور والزكاة ،وحصول آل مقران على وضع خاص بعد إتفاقهم مع حكام الإيالة في بني عباس في نهاية القرن 17م على توليتهم جمع الأخشاب من منطقة بجاية وتحميلها إلى الجزائر ، وفي المقابل يتولون إدارة الإقليم الذي يقطنونه ، أمافي سنة 1682م فقد اقتطع الداي حاج محمد إقليم مجانة من باي قسنطينة ومنح إدارته لعبد القادر بن سيدي محمد أمقران .

أما الأسلوب الثاني فهو عن طريق المهادنة أو المصالحة ، فمثلا صالح باي 1725 – 1792م، الذي حكم بايلك الشرق منذ 1771 م انتهج هذا الأسلوب مع الكثير من القبائل المتواجدة في إقليمه، واستطاع بذلك استمالة الكثير من رجال الدين والمرابطين والصوفيين، بعد أن صفى له الجو مع العديد من الاعراش والبطون التي ضمها إليه مثل سكان جبال عمور وبلاد الميزاب ومنطقة الأغواط وتقرت .

أما الصنف الثاني فيمثله مجموعة من رجال التصوف الذي عارضوا بشدة أسلوب حكم العثمانيين الأتراك في الجزائر واعتبروه تسلطا ووصفوه بنعوت شديدة ومن ثمة أشهروا في وجوههم المقاومة ومن أمثلة ذلك ما قام به أحمد بن ملوكة التلمساني ، الذي عارض القائد عروج عند دخوله مدينة تلمسان ونظر لسياسته أنها عدوان على التلمساني ولا بد من التصدي لها ومحاربتها ومما يذكره أبو القاسم سعد الله في ذلك أن معظم المرابطين في تلمسان ونواحيها كانوا ضد الأتراك ، ومنهم الشيخ موسى اللاتي والشيخ عبد الرحمن اليعقوبي ومن بين المعارضين أيضا الحسن بن القاضي الذي كان في البداية من المؤيدين ، ثم ثار هذا الأخير ضد خير الدين سنة 1520 م وتمكن من إخراجه من مدينة الجزائر والسيطرة عليها لفترة خمس سنوات ، ثم استرجعها منه خير الدين سنة 1525م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكذلك حفيده عمر بن القاضي ، الذي كان أيضا بمنطقة بني خيار ببلاد زواوة ، ودفعه ذلك للتحالف مع الملك الإسباني فليب الثالث في جوان 1603 بغرض التصدي للانكشارية لكن المرابط سيدي منصور كشف المؤامرة ، وكان معاديا للتقارب بين عائلة بن القاضي و الإسبان واستقبل الجيش التركي في منطقة بني حنادشة سنة 1618 وتعاون معه على ابن القاضي و الإسبان هذا وقد عرفت مرحلة عثمان باشا (1766- 1791) بدورها تمردات مختلفة ، ومن أمثلة ذلك ما أقدم عليه سكان جبل فليسة بمنطقة جرجرة ببلاد القبائل الذين خرجوا عن طاعة الأمير ومنعوا الزكاة وحرموا البنات من الإرث ،وفي سنة 1789 بعث إليهم عثمان باشا بفرقة تأديبية، لكنها وجدت مقاومة عنيفة وانهزمت في الحملة الأولى والثانية ولم تستطع الانتصار عليهم إلا في الجولة الثالثة بعد أن عزز الباشا جنده ،كما عرفت مرحلة الدايات (1671-1830) مع مستهل القرن التاسع عشر، أخطر تمرد قادته الطريقة القادرية ضد الحكم العثماني في الجزائر بقيادة زعيمها ابن الشريف الدرقاوي ، نيجة لمجموعة من الأسباب المختلف :

- السياسة الضريبية القاسية التي فرضها بعض الولاة بالقوة على الفلاحين.
- عداوة ومحاربة بعض بايات وهران لرجال التصوف والطرق الدينية، اذ يذكر الناصري مثلا أن الداي مصطفى طالب بتضييق الخناق على الطريقة الدرقاوية، و أمر بإلقاء القبض على زعيمهم عبد القادر ابن شريف الذي اختار الصحراء لاستعداده للثورة ، بعيدا عن عيون الحكام ومواليهم.
- وجدير بالذكر أن هذا التمرد قد لقي مباركة ودعما من سلاطين المغرب الأقصى، بغرض إضعاف شوكة العثمانيين في الإقليم الغربي من الجزائر، الذي كان حلم المغاربة منذ سقوط الدولة الموحدية .

و رغم استعدادات ابن الشريف لسنوات عديدة وتمكن قواته في البداية من دحر الجند العثماني، والوصول إلى مشارف وهران لكن التمرد كان في النهاية مآله الفشل بعد أن عين داي الجزائر الباي محمد بن المقلش سنة 1805 على القطاع الوهراني الذي رجح من جديد كفة الميزان لصالح الحكومة المركزية.

كما هناك تمردات وإنتفاضات أخرى كانت متزامنة تقريبا مع الثورة الدرقاوية وعلى رأسها ثورة ابن الأحرش بمنطقة الشرق وتحديدا في منطقة الشمال القسنطيني ،وقد إعتمد ابن الأحرش في حركته تلك على أسلوب الدعاية والترشيد إذ استقر بزاوية الزيتون بضواحي مدينة جيجل ومنها طالب بقيام حكومة على حساب بايلك الشرق و أمر رجاله بمهاجمة الحاميات التركية ووصلت طلائعه إلى ضواحي قسنطينة خلال ربيع 1804م حتى نجح في دخولها و الإستيلاء على كثير من مخازنها ، لتتواصل وخلال السنتين 1806-1809م تواصلت المعارك من جديد بين ابن الأحرش ومعارضيه في سهول بجاية وضواحيها لكنه فشل أمام قوة الباي وجيشه ولم يجد ابن الأحرش من مخرج إلا التوجه نحو الغرب الجزائري وتعزيز العلاقة والتنسيق مع الطريقة الدرقاوية ، حيث كان معه حلفائه من أولاد عطية لكن العثمانيين في أخر الأمر استطاعوا إخماد ثورة ابن الأحرش المتعاونة مع الدرقاويين .

ومن جهتها نجد أن الطريقة التجانية بدورها قد أعلنت أيضا معارضتها للسلطة العثمانية في الجزائر ، حيث قام شيخها محمد التجاني سنة 1806 م بتعزيز علاقاته مع سكان منطقة غريس بالقطاع الوهراني الذي بايعه أهلها سرا ، وهو الأمر الذي أقلق السلطة العثمانية ، فوقع إصطدام بين الطرفين أحدهما مع باي وهران محمد الكبير بمنطقة عين ماضي بضواحي الأغواط والثاني مع باي التيطري ، والتي كانت في صالح العثما نيين ، الأمر الذي دفع بالتجاني إلى الإنسحاب ، ثم مغادرة الجزائر مع أهله وأتباعه نحو المغرب الأقصى .

ورغم إخماد ثورة ابن الأحرش وهجرة الشيخ التجاني إلا أن المعارضة للسلطة العثمانية في الجزائر ، إستمرت في بعض مناطق الوطن وخصوصا نهاية القرن 18 فمعارضة رجال الدين والمتصوفة لم تتوقف وإن ضعفت كثيرا ، إذ أنه أيام تولي حسين باشا أخر الدايات حكم الجزائر شهدت فترة حكمه اضطرابات كثيرة عبر مناطق مختلفة من الوطن قادتها قبائل ثائرة ومتحالفة مع رجال الطرق كمنطقة القبائل التي شهدت اضطرابات متعددة خلال أكتوبر من سنة 1823 ، كما قام سكان بجاية أيضا بأسر المفتي الحنفي العثماني وجعلوه رهينة وعندما تدخلت الدولة العثمانية المركزية اتصلوا بالقناصل الأوربية لطلب الحماية .

ومن خلال ما سبق يتضح لنا جليا أن جل الثائرين على السلطة العثمانية قد ظهروا خلال منتصف القرن 18 ، اذا استثنينا من سبق ذكرهم ممن أبدوا المعارضة منذ بداية ظهور الإخوة عروج على مسرح الأحداث السياسية للجزائر ، ولعل تفسير تركز

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التمردات تلك في هذه الفترة أي مع نهاية الوجود العثماني في الجزائر ، هو فقدان الثقة بين بعض الجزائريين والسلطة العثمانية وذلك راجع إلى :

- إرهاق الأهالي بالضرائب مع إنكماش موارد النشاط البحري التجارية مع مطلع القرن 17 والتي كانت المورد الأساسي لخزينة الدولة، فكلما قلت موارد الأسطول البحري لجأت حكومة الإيالة إلى زيادة استغلالها للطبقة الفلاحية الجزائرية وذلك بزيادة عبئ الضرائب عليها.
- فساد بعض مكونات النظام العثماني وعزلته عن الرعية والمجتمع والعجز كليا عن التعامل مع المجتمع الجزائري بمختلف مكوناته وفئاته .

اما القسم الثالث والأخير فقد كان معتدلا في التعامل مع السلطة العثمانية ولا يفضللا أدام إيمانا بأهمية الإستقرار حتى لاتمنح الفرصة للأعداء خاصة خارج الجزائر ،فكان يكتفي بإعطاء النصائح والتوجيهات للسلطة العثمانية من دون أن يصل إلى أي تصادم معها ، وبذلك فهم لم يؤيدوا العثمانيين كل التأييد ولم ينقموا عليهم كل النقمة .

ومن أمثلة ذلك " الشيخ العبدلي في إقليم تلمسان الذي كان على علاقة بالقائد العثماني محمد بن سوري إذ كان يعظه ويطالب منه مطالب في صالح أهل البلاد" .

أما الشيخ الشليحي فقد كان له دور كبير في تغيير موقف باي قسنطينة حسن بوحنك تجاه الأولياء والصالحين فبعد أن كان عنيدا متمردا عليهم، أصبح بفضله كريما ومتصالحا معهم ،إذ أنه أعطى للمرابط الشليحي قصرا في المكان المعروف باسم الأربعين شرين الذي أصبح يعرف فيما بعد باسم دار الشليحي كما أنشا له زاوية في أولاد عبد النور وأعفاها من الضرائب فكثيرا ما كان العثمانيون يكثرون من الهدايا والعطايا للمرابطين بهدف استمالتهم وتوظيفهم عند الشدة ضد المعارضة الأمر الذي جعل البعض من رجال الدولة يشترون صمت هؤلاء من جهة والمرابطين بدورهم يرشون الولاة ليسكتوا عن ابتزازهم أموال الناس والتعدي على حرمات الرعية .

ومهما يكن من موقف رجال الصوفية وعلاقتهم بفئة الحكام العثمانيين والتي تتميز بالتباين و الإختلاف فان لهؤلاء سلطة سياسية ونفوذ كبير على المجتمع الجزائري الأمر الذي جعل حكومة الأتراك تبدي مخاوفها من هاته السلطة الصوفية وتحسب لها ألف حساب فنجدها تلجأ إلى شتى الوسائل والسبل من اجل كسب ولائها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com